فقه الحرب النفسية في ضوء سورة الأنفال

د. أحمد قطران
كلية التربية . جامعة صنعاء

المقدمة

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه خلق الإنسان وعلمه البيان يعلم ما تخفي الصدور القائل:﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨)قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠) الشمس، واصلي واسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين القائل(نصرت بالرعب)[١].

وبعد

تعد الحرب النفسية ذات أثر فعال في حسم المعارك لصالح المتمكن من إدارتها بشكل متقن ، وكانت العمود الفقري في مسيرة الجهاد الإسلامي من بداية ظهور الدعوة الإسلامية، وقد استخدمها الإسلام ضد خصومه استخداما رائعا بلغ بها الذروة من حيث الأخلاق العالية التي صاحبت استخدامها ،وكان لها ابلغ الأثر في بث الرعب في نفوس خصوم الإسلام في كل عصر من عصوره إلى يومنا هذا، والقرآن الكريم وهو المنبع الصافي للأحكام الشرعية في كل المجالات زخرت آياته بكثير من الصور التي أثرت على خصوم الإسلام نفسيا بمجرد سماعهم لها .

واليوم وأمتنا تعيش مرحلة من أحلك مراحلها الاقتصادية والعسكرية والسياسية ـحيث أضحى دم المسلم ارخص الدماء وماله ارخص الأموال وأصبح الخصوم

---

[١] رواه البخاري ١٠٨٧/٣ رقم ٢٨١٥، ومسلم ٣٧٢/١ رقم ٥٢٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يتلذذون في إيذاء المسلمين وتوجيه الضربة تلو الضربة في كل مكان من العالم حيث هُزم المسلمون من داخلهم، واستطاع عدوهم أن ينال منهم نيلا. لذلك نحن بحاجة ماسة إلى العودة إلى المنبع الصافي لمعرفة كيف أدار الإسلام معركته مع الخصوم، وسورة الأنفال ــ وهى التقرير الميداني لمعركة بدر الكبرى ــ ترسم منهجا واضحا للحرب النفسية يجتهد الباحث في استجلاء بعض معالمه، وقد قسمه إلى فصلين خصص أحدهما لمفهوم الحرب النفسية ودورها، والثاني لصور الحرب النفسية في ضوء سورة الأنفال راجيا من المولى سبحانه أن يوفق امتنا إلى كل خير، وان يأخذ بأيدي أبنائها إلى مواطن العزة والكرامة والله اكبر والعزة لله ولرسوله والمؤمنين.

القسم الأول: الحرب النفسية مفهومها ودورها

أولا: مفهوم الحرب النفسية

تعرف الحرب النفسية بـ(الاستخدام المخطط للدعاية أو ما ينتمي إليها من الإجراءات الموجهة على الدولة المعادية أو المحايدة أو الصديقة بهدف التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول بما يحقق للدولة (المواجهة) أهدافها)[١] وقيل هي: (الاستخدام المدبر لفعاليات معينة معدة للتأثير على أراء وعواطف وسلوك مجموعة من البشر وقت الحرب أو الطوارئ، ويستهدف منها إضعاف معنوياتهم، وتغيير منهج تفكيرهم بشكل يحقق مصالح العدو في القضايا التي يجري الصراع من أجلها، وهي تشمل بمعناها الواسع استخدام علم النفس لخدمة الحرب بأساليب الدعاية، الإشاعة، المقاطعة الاقتصادية، المناورة السياسية مع ما يكملها من الأعمال العسكرية الرادعة)[٢] وقيل: (استخدام مخطط – من جانب دولة أو مجموعة من الدول في وقت الحرب أو في وقت السلام – لإجراءات إعلامية، بقصد التأثير في أراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية معادية أو محايدة أو صديقة تساعد على تحقيق سياسة وأهداف الدولة أو الدول المستخدمة) وقيل هي: (إجراءات تهدف إلى شل إرادة الخصم وتحطيم رغبته في القتال بإيصاله إلى وضع لا يرى فيه أي أمل للنصر) وقيل أيضاً (هي استخدام أية وسيلة بقصد التأثير على الروح المعنوية وعلى سلوك أية جماعة لغرض عسكري معين).[٣]

ومما سبق يستنتج الباحث:

---

(١) محفوظ ، محي الدين علي : مدخل إلى العقيدة والإستراتيجية ،الناشر، دار الاعتصام القاهرة، ط/٢ ص ١٤٧.

(٢) الزبيدي، كامل : علم النفس في الميزان العسكري، الدار العربية للموسوعات، ط/١ ١٩٨٨م ٧.

(١) نوفل،أحمد : الحرب النفسية ، دار الفرقان عمان الأردن، ط/٣ ١٩٨٧م، ١/ ٣٤، ٣٥.

أن الحرب النفسية هي: الأعمال الفكرية والثقافية التي تستهدف الروح المعنوية للخصم لإضعافها وتغيير وجهة العواطف إلى عكسها حتى لا يقوى الجيش وأنصاره على المواجهة فتكون النتيجة تحقق الأهداف المطلوبة من خلال هذه الوسيلة الفعالة، ويختلف هدف الحرب النفسية باختلاف المخاطب بها.

(فمع الدولة المعادية: يكون الهدف التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدولة وجيوشها لتحطيم روحها المعنوية وإرادتها القتالية وتوجيهها نحو الهزيمة، ومع الدولة المحايدة: يكون الهدف التأثير على عواطف، وأفكار وسلوك شعوب هذه الدولة لتوجيهها نحو الانحياز للدولة المواجهة، أو التعاطف مع قضيتها، أو على الأقل البقاء في وضع الحياد ، ومنعها من الانحياز إلى الجانب الآخر، ومع الدولة الصديقة: التأثير على عواطف وأفكار وسلوك هذه الشعوب لتوجيهها نحو تدعيم أواصر الصداقة مع الدولة المواجهة ، ونحو المزيد من التعاون لتحقيق أهدافها)[١]

ثانيا: دور ومهام الحرب النفسية

الحرب النفسية سلاح فعال في المعارك، وهي أقوى تأثيرا من الحرب المادية ، وتنبع أهميتها_ من كونها أمضى سلاح_ تعلقها بما في النفس الإنسانية من ثبات وطمأنينة ووهن... الخ ،فالمعنويات المنهارة لا تستطيع الثبات وإن امتلكت أحدث الأسلحة، أو كانت أكثر عددا وعدة ممن يواجهها..،لذلك فهي أهم وسيلة تدعم وسائل الحرب الأخرى في استجلاب النجاح والنصر في المعارك؛ لانها توفر الكثير

(٢) الزبيدي: مصدر سابق، ٧.

من الخسائر في الرجال والعتاد والأموال ؛ لأن السيطرة على النفس تعني السيطرة على المعركة ، ويؤيد هذا ما قاله قادة عسكريون في العصر الحديث.

يقول تشرشل[١]: (كثيراً ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ)،ويقول ديغول[٢] (لكي تنتصر دولة ما في حرب فإن عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى أرض المعركة، وتظل هذه الحرب تساند هذه القوة حتى تنتهي من مهمتها) ويقول رومل[٣] (إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم) ويضيف الدكتور حامد زهران (وتعتبر الحرب النفسية أضمن سلاح تستخدمه الدول في الحرب الحديثة لأنها تقوم بالدور الفعال في قتل إرادة ومعنويات الخصم... والحرب النفسية من أهم موضوعات الساعة وهي أخطر أنواع الحروب)[٤]

وتحقق الحرب النفسية هدفها في تحطيم روح العدو المعنوية وإرادته القتالية من خلال المهام التالية :.

---

(١) ونستون تشرشل: أحد القادة البريطانيين ولد عام ١٨٧٤م في مقاطعة مالبورو البريطانية وكان من القادة المؤثرين في الحرب العالمية الثانية تولى رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع عام ١٩٤٠م وسقط حزبه بعد ذلك بسنة ثم عاد لرئاسة الوزراء عام ١٩٥١ واستقال من منصبه عام ١٩٥٥م ،كان سياسيا وأديبا توفى١٩٦٥م.ينظر: المنجد في اللغة والأعلام ١٧٤.

(٢) شارل ديغول : جنرال فرنسي ورجل دولة دعا إلى مقاومة الألمان ، ترأس الحكومة من عام ١٩٤٤ حتى ١٩٤٦ م ورئيس الجمهورية الخامسة من عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٩م قدم استقالته واعتزل العمل السياسي عندما هزم مشروعه في تعديل الدستور الفرنسي عام ١٩٦٩م وتفرغ لكتابة مذكراته توفي عام ١٩٧٠م ينظر:المصدر نفسه ٢٥٤.

(٣) أرفين رومل : مارشال ألماني قاد الحملة الألمانية على أفريقيا، وفشل في معركة العلمين التي دارت أحداثها في صحراء أفريقيا بين الألمان والإنجليز، شك هاتلر في إخلاصه فأمره بالانتحار عام ١٩٤٤م. ينظر: المصدر نفسه ٢٧١،

(١) نوفل: مصدر سابق،١/ ٢٩-٣٠.

١- تشكيك العدو في سلامة وعدالة الهدف الذي يحارب من أجله.
٢- زعزعة ثقة العدو في قوته من حيث الرجال والعتاد والقادة، وزعزعة ثقته في إمكانية إحراز النصر ، وإقناعه بأن لا جدوى من شن الحرب أو الاستمرار في القتال.
٣- بث الفرقة والشقاق بين صفوف العدو وجماعاته.
٤- التفريق بين العدو وحلفائه، ودفعهم إلى التخلي عن نصرته.
٥- تحييد القوى الأخرى وحرمان العدو من محالفتها)[١]

ومن خلال ما سنعرضه من صور الحرب النفسية في سورة الأنفال كما تصورها الآيات(١٢-١٥-١٨-١٩-٣٦-٣٨-٤٣-٤٤-٥٧-٥٩-٦٠-٦٧)من السورة[٢] ندرك مدى تحقق هذه المهام ،وكيف وضعت السورة منهجاً عظيماً في الحرب النفسية أصبح نبراساً يسير على هديه المسلمون في حروبهم، حتى خرجت بعلم من أهم العلوم العسكرية ذات التأثير في حسم المعارك،وهو علم النفس العسكري أو الحربي، فإذا أضيف لها بعض المفاهيم التي وردت في سور أخرى[٣] ،سنجد علماً متكاملاً يدرس ،ويجلي تفاصيل النفس الإنسانية وما يؤثر عليها سلباً أو إيجاباً.

ثالثا: الحرب النفسية في صدر الإسلام

(٢) محفوظ : مصدر سابق، ص١٤٨.
(٣) موزعة على المطالب كما سيرى القارئ.
(١) صور الحرب النفسية مبثوثة في سور عدة في القران، كسورة البقرة، وسورة التوبة وسورة الفتح، وسورة محمد، وسورة المنافقين، وغيرها، واستقصاؤها يحتاج إلى بحث آخر وهوما نعد به إن أنسأ الله في العمر.

١ - المدخل

عرف الإسلام هذا السلاح الفتاك من أول أيام ظهوره فمن يقرأ السورالمكية يجد أن القرآن كان يسير باتجاهين.

الأول الاتجاه الداخلي: وهو بناء العقيدة والتربية الروحية، والتأكيد على رفع المعنويات، حتى وصل بالصف الإسلامي إلى أعلى مراتب الثبات المعنوي.

والثاني الاتجاه الخارجي: وهو تحطيم معنوية الخصم، إذ أتجه القرآن إلى تسفيه أحلام المشركين، والهجوم على معتقداتهم حتى أوصلهم إلى مرحلة الشك بل أوصل بعضهم إلى اليقين ببطلان تلك المعتقدات، ومن ثم أضعف معنوياتهم في الدفاع عنها، وإلى جانب ما كان يشنه من الهجوم المباشر على تلك المعتقدات كان يضرب الأمثلة المتتالية التي كانت تذكّر بمصير من يحملون معتقدات متشابهة لمعتقداتهم.(١)

ولما أنتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ونزل الإذن بالقتال في قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج/٣٩).

استخدم الحرب النفسية أسلوبا ثابتا ودائما (كاستراتيجية) في كل المعارك، وكان القرآن ينزل ليضيف أو يعدل أو يؤيد ذلك الأسلوب (الاستراتيجية) المستخدم.وفي

---

(٢) فكان يذكر القصص التي تشير إلى هلاك الأمم الذين كذبوا بالرسل كقوم نوح قال تعالى:﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ =(نوح/٢٥)، وقوم عاد قال تعالى:﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود/٦٠). وغيرهما من الأمم

المدينة المنورة تنوع الخصوم. ففي حين كانت قريش في مكة هي الخصم الوحيد أصبح الخصوم في المدينة ثلاثة أصناف:(مشركوا العرب بمن فيهم قريش، اليهود، المنافقون).

ومن خلال المطالب التالية نعرض لمعنويات الخصوم الثلاثة.

٢ - قريش ومن والاهم من مشركي العرب

تعد قريش الخصم الأول الذي أصطدمت به الدعوة الإسلامية في أول أيام نزولها،وهذا الخصم كما قلنا شن عليه القران حرباً نفسية أوصلته إلى حالة الصفر فيما يتعلق بالمعتقدات، فكل المعارك التي خاضتها قريش مع المسلمين ليست دفاعاً عن المعتقدات، بل إن المعتقدات كانت ثانوية[١].

فمعركة (بدر) مثلاً: كان دافع قريش اقتصاديا بحتا، وهو الدفاع عن القافلة أو حماية طرق التجارة[٢]، ومعلوم أن هذا الدافع كان تأثيره على الخاصة من قريش_ وهم من يملك المال_ فمعنويات هذا الفريق تنطلق من كونه يدافع عن ماله، بينما من لا مال له لا معنوية لديه فلماذا يقاتل ؟ .

---

(١) والقرآن الكريم وصف أفعالهم تلك بالصد عن سبيل الله قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء/٧٦). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال/٣٦)وقال تعالى: =﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال/٤٧)،وهو كذلك ، غير أننا نعني الأسباب المباشرة القريبة للمعارك ،والتي كانت مدار تعبئتهم المعنوية للجيش.

(١) ينظر: المبارك فوري، صفي الدين: الرحيق المختوم، دار القلم، بيروت، ط/١ ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م،٢٥٣.

لذلك كان جلُ قتلى المعركة من المشركين من علية القوم من الناحية الاقتصادية والسياسية.

ومعركة (أحد) كان الهدف هو الثأر لقتلى (بدر)، وهذا يتعلق بجانب العصبية والخوف من العار ، وهو أمر لا علاقة له بالمعتقدات إطلاقاً، وكان قادة المشركين عند التعبئة المعنوية يركزون على الثأر لأولئك القتلى ،ويركزون إلى جانب ذلك علىالمهدد الاقتصادي (قطع طرق التجارة)، بينما المعتقدات والدفاع عنها كانت بالمرتبة الثانية، ولما ظهر جيش المشركين في (أحد) على المسلمين بدت مسألة المعتقدات فقال قائلهم (اعل هبل)[١] في حين الحال على العكس لدى المسلمين حيث المعنويات المتجددة ، والتي تجعل المعتقدات أولاً ،وما سواها تابعاً لها، وظلت التعبئة المعنوية للمسلمين تنطلق من العقيدة لا غير[٢].

٣ - اليهود

اليهود هم الخصم(الفكري والعقدي) للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ولذلك ، فقد اختلفت مواجهتهم ، حتى أن معارك المسلمين مع اليهود تختلف اختلافا كبيراً عن معارك المسلمين مع قريش، لأن اليهود ينطلقون من (فكر وعقيدة)، وكانوا يرون لأنفسهم فضلاً على العرب ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة/٨٩)، ومع امتلاك اليهود للعقيدة ، فقد كانت معنوياتهم في الحضيض ، لدرجة أنهم لم يثبتوا ثبات قريش ، مع أنهم كانوا يملكون من العدة والعتاد ما لا تملكه

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٧١/٧ رقم ٣٦٧٨٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٠٩ وقال: رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثق على ضعفه ، وينظر أيضا المبارك فوري مصدر سابق ٢٥٣.

(١) الجبوري ، نهاد شهاب:العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، دارالحرية، بغداد ١٩٨٧م،٣٥.

قريش، بل مالا يملكه العرب مجتمعون ، فقد غنم المسلمون من اليهود أكثر مما غنموا من مشركي العرب، وتعود تحطم الروح المعنوية لدى اليهود من وجهة نظرنا إلى أسباب أهمها:

- معرفتهم من خلال كتبهم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام/٢٠) فكون الخصم يحارب،وهو يعلم بصدق ما يدعيه خصمه، وكذب ما يحمله هو، فإن ذلك يعني اليقين بالهزيمة، وهو ما كان عليه اليهود.

- شهودهم ومعرفتهم لما دار بين المسلمين ومشركي العرب من المعارك، وما آلت إليه تلك المعارك، وهذا دمر معنوياتهم بشكل جعلهم يصلون إلى مرحلة اليقين بعدم القدرة على مواجهة المسلمين مما حدا بهم إلى تحزيب الأحزاب والتحالف مع الوثنيين بكل قبائلهم ضد المسلمين، كما حدث في غزوة الخندق بل وصل بهم الأمر حد قيامهم بتعبئة مشركي العرب، والشهادة بأن ما يعتقد ونه من الوثنية أهدى مما جاء به محمد ﷺ ، وقد صور القرآن هذا فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ (النساء/٥١).

- الطبيعة التي جبلوا عليها من الجبن والذل، فقد وصفهم الله بذلك قال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ (البقرة/٦١)،

وقال تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر/١٤).

٤ - المنافقون

وهم الخصم الثالث لرسول الله وأصحابه، وهذا الخصم كانت الروح المعنوية لديه في أدنى مستوياتها، الأمر الذي جعلهم يلجاؤن إلى أسلوب الخيانة والتلصص والكذب والكيد والمخادعة، وهذا لا يلجأ له إلا من كان علي يقين أنه لا يستطيع المواجهة- لا أعني المواجهة العسكرية بل وحتى المواجهة الكلامية_ ولذا فقد أظهر المنافقون خلاف ما يبطنون ولكن القرآن فضحهم فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون/١)، ووصل بهم الحال إلى تشجيع غيرهم خفية على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، والوعد كذباً بنصرتهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر/١٣).

فهذه الروح المعنوية الخائرة لدى المنافقين ترجع إلى أسباب نذكر منها:

١- حضورهم بعض المعارك التي خاضها المسلمون مع المشركين واليهود، ذلك الحضور الذي رأوا فيه الموت المحقق، وشاهدوا شدة بأس المسلمين مع عدوهم في المعارك. مما جعلهم لا يفكرون مجرد التفكير بالمواجهة الكلامية فضلا عن المواجهة العسكرية.

٢- غياب المستند العقدي والفكري (الأيدلوجي) لهم ، فإذا كان اليهود يحملون عقيدة، والمشركون يحملون عقيدة _رغم انحراف تلك العقائد _ فالمنافقون لا يحملون أي عقيدة ، وكان منطلقهم هو الكبر والحقد والغل ضد الإسلام والمسلمين ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون/٨).

٣- قلة أعدادهم فهم- مقارنة بأعداد المشركين أو اليهود أو المسلمين- قلة قليلة لذلك كان لسان حالهم يقول : إذا كان اليهود والمشركون قد هُزموا أمام المسلمين فكيف بنا ونحن أقل عدداً وعدة. ؟

٤- تعرية القرآن لهم، حيث أكتفى الإسلام بمواجهتهم إعلامياً ، ولم ستخدم ضدهم أي إجراء مادي على الإطلاق، حتى حد القذف لم يقم على من خاض في حادثة الإفك منهم ، مع إقامته على من خاض فيه من المسلمين [١]. واكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم بما كان ينزل من القران لفضحهم في كل تحركاتهم، واستخدم ضدهم الحرب النفسية فقط ، إلى الحد الذي جعلهم يرتجفون من كل شيء وجعلهم يعيشون في قلق وتوتر دائم صور القران حالهم بقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (المنافقون/٤).

القسم الثاني: النماذج والصور

أولا: الحديث عن هزيمة الخصم لتدمير معنوياته قبل المعركة

١- صورة من واقع مشركي قريش

تتمنى كل الجيوش في كل الدنيا قبل خوضها للمعارك أن يكون الخصم مضطرب المعنويات ضعيف التعبئة ، لأن ذلك سيساعدها على الانتصار عليه وهزيمته، لذا تحرص تلك الجيوش على بث الإشاعات وإرسال المعلومات التي من

(١) المباركفوري، مصدر سابق ٣٠٥. ك(مسطح، وحسان، وحمنة)

شأنها تدمير معنويات الخصم، وتثبيط عزيمته، وومن أجل ذلك تنفق الأموال الكثيرة في مجال الحرب النفسية، وتتركز الجهود بشكل مكثف قبل الدخول في المعركة ، حتى وإن كان الجيش يضمن النصر إلاّ أنه يتجه إلى الحرب النفسية ليضمن ليس الانتصار فقط ، ولكن ليضمن إلى جانب ذالك سرعة الحسم[١]، وقد ركز القرآن على تدمير معنويات الخصوم ، وتحدث عن هزيمتهم عسكرياً بصيغة الجزم المستقبلي قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر/٤٥)، فهذه الآية نزلت بمكة، قال الطبري فهزم المشركون يوم بدر[٢]،وقال القرطبي: كان ذلك يوم بدر[٣] ، وسورة الأنفال اهتمت بهذا الأمر اهتماما بالغاً، فالحديث عن الهزيمة المسبقة للخصم بالشكل الجازم الذي استخدمه القرآن له وقع السحر على الخصوم قبل الدخول في المعركة، بل وقبل التفكير في خوضها إذ تنهار معنوياته إلى درجة أنه يدرك الهلاك ، وكفى بهذا الشعور في تحطيم المعنويات.

---

١) الجبوري : مصدر سابق٣٦

(١) الطبري ، الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبوجعفر ت ٣١٠: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٢٧/ ١٠٨

(٢) القرطبي، الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله ت ٦٧١هـ: الجامع لأحكام لقرآن،تحقيق أحمدعبد العليم البردوني، دار الشعب القاهرة، ط/١٣٧٢،٢هـ،١٧/.١٤٥

(٣) رواه البخاري، ٩٤/١، رقم ٢٣٧،و مسلم، ١٤١٨/٣، رقم ١٧٩٤، ينظر أيضا: صحيح مسلم بشرح النووي، للإمام أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ت ٦٧٦هـ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٣٩٢هـ، ط/٢ ،١٥٣/١٢.

والسيرة النبوية أوردت أمثلة حقيقية في هذا المجال نذكر منها:
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على نفر من قريش بالهلاك فهلكوا قتلاً بأيدي المسلمين في(بدر)، ونذكر هنا جزءا من الحديث الذي رواه ابن مسعود حيث قال أن رسول الله ﷺ دعا على قريش فقال :(للهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وذكر السابع ولم أحفظه فوالذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر)[١] وهؤلاء الذين ذكروا كلهم قتلوا في (بدر) عدى أبي بن خلف إذ قتل في (أحد)، وله قصة أوردها المحدثون ، وهي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال عنه في مكة إني أقتله إن شاء الله ، وكان قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبيا :حلف ليقتلن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء يوم (أحد) عازما على إبرار قسمه بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم انتزع حربة فرماه بها فسقط من على فرسه، وجره أصحابه وهو يخور خوار الثور فقالوا ما بك إنه جرح هين ؟ فقال والله

١) رواه البخاري، ٩٤/١، رقم ٢٣٧،و مسلم، ١٤١٨/٣، رقم ١٧٩٤، ينظر أيضا: صحيح مسلم بشرح النووي، للإمام أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ت ٦٧٦هـ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٣٩٢هـ، ط/٢ ،١٥٣/١٢.

لو نظر إليّ محمد لقتلني، وفي رواية أخرى والله لو تفل عليَّ محمد لقتلني، ومات في الطريق إلى مكة...[١]

٢- حتمية خسارة المال والهزيمة وعذاب الآخرة

الآية قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ تحدثت الآية عن

---

٢) وهنا نسرد جزءا من الروية وهو ما يتعلق بأبي بن خلف (وأما أبي بن خلف ، فقال والله لأقتلن محمدا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بل أنا أقتله إن شاء الله قال فانطلق رجل ممن سمع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بن خلف فقيل إنه لما قيل لمحمد ﷺما قلت قال: بل أنا أقتله إن شاء الله فأفزعه ذلك وقال أنشدك بالله أسمعته يقول ذلك؟ قال نعم فوقعت في نفسه، لأنهم لم يسمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم يقول قولا: إلا كان حقا ، فلما كان يوم أحد خرج أبي بن خلف مع المشركين ، فجعل يلتمس غفلة النبي ﷺ ليحمل عليه فيحول رجل من المسلمين بينه، وبين النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه خلوا عنه فأخذ الحربة ، فجزله بها يقول رماه بها ، فيقع في ترقتوته تحت تسبغة البيضة ، فوقع الدرع ، فلم يخرج منه كبير دم ، واحتقن الدم في جوفه ، فجعل يخور كما يخور الثور ، فأقبل أصحابه =حتى احتملوه وهو يخور، وقالوا ما هذا فوالله ما بك إلا خدش، فقال: والله لو لم يصبني إلا بريقه لقتلني أليس قد قال: أنا أقتله إن شاء الله،والله لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم. قال فما لبث إلا يوما أو نحو ذلك حتى مات إلى النار، فأنزل الله فيه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان/٢٧) ، رواه الإمام عبد الرزاق في المصنف، ٥/ ٣٥٧ ،رقم ٩٧٣١ عن مقسم مولى بن عباس رضي الله عنهما، ورواه الحاكم، في المستدرك، ٢/ ٣٥٧، رقم ٣٢٦٣ ،عن سعيد بن المسيب عن أبيه ،وقال صحيح على شرط الشيخين، و ينظر أيضا: ابن القيم، الإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبد الله ت ٧٥١هـ : زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، عبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت ،الكويت، ط/٤ ،١٤٠٧هـ . ١٩٨٦ م ، ٣/٢٠٩.

ثلاث نتائج من نتائج إنفاق المشركين لأموالهم للصد عن سبيل الله الأولى: أنها تكون عليهم حسرة، والثانية: أنهم يغلبون، والثالثة: أنهم يحشرون إلى جهنم ، وهنا يبرز تساؤل لماذا قدم الحسرة على الغلب في السياق.؟ إذ المفترض أن تكون الحسرة نتيجة الغلب ؛ لأن المنفق عندما ينفق ماله لشيء ما، فإنه ينتظر النتيجة منه، فإذا كانت إيجابية فرح وانتشى، وإذا كانت سلبية تحسر على ما أنفق، وعلى هذا كان المتوقع أن يكون السياق فسينفقونها ثم يغلبون ثم تكون عليهم حسرة... الخ فما الحكمة من تقديم الحسرة في السياق على الغلب.؟

أقول والله أعلم: إن المشركين بما جبلوا عليه من تحكم غريزة حب المال [١] المعنية بقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر/٢٠) على قلوبهم لا ينفقون إلاّ كرها على أنفسهم وعليه، فالمنفق لماله ، وهو بهذه النفسية الهلوعة ينفقه، ثم يتحسر عليه ابتداء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ، فإن المشركين عندما يرون أموالهم وهي تتجه وتسير إلى الإتلاف المحقق في مواجهة الحق يتحسرون عليها فكأنه يقول: إنهم ينفقون أموالهم مع تيقنهم من الخسارة ذلك يصيب أنفسهم بالحسرة ، كونهم يعلمون عدم الجدوى من الإنفاق، فذكر القرآن الحسرة ،ثم أردف قائلاً (ثم يغلبون)، فتصير الحسرة حسرتين: حسرة على إنفاق المال وحسرة من الغلب (الهزيمة).

(١) لأن حب المال غريزة إنسانية يستوي فيها المسلم وغير المسلم، والفارق هو تحكم المسلم بها وتحكمها بغير المسلم.

والحسرة لاشك وضع نفسي تدميري، والقرآن بهذا التعبير يدمر معنويات جزء كبر من جيش الخصم ، وهذا الجزء هم المِمَولُون (بكسر الواو) وهؤلاء إن دمرت معنوياتهم وخارت عزائمهم أحجموا عن القتال، فإذا أحجم هذا الفريق عن القتال كان غيره أكثر إحجاماً، لأن الممول المفترض منطقياً أن يكون أكثر إقداماً لأنه إذا أحجم كان أكثر الناس خسارة في حالة الغلب، إذ أنه في حالة النصر سيرجع إليه ماله ،ومثله ، وربما أكثر، وفي حالة الهزيمة يخسر المال، فيكون متحسراً ومغلوبًا، أما غيره وهم المِمَوَلون (بفتح الواو) ، فإن إقدامهم يتوقف على إقدام الفريق الأول، فإذا أحجم كانوا أكثر إحجاماً ؛ لأنهم أقل خسارة من غيرهم فهم في حالة النصر سيأخذون مالاً دون أن ينفقوا شيئاً، وقد يتساوون مع من أنفق في الأنصبة، وفي حالة الهزيمة –إذا لم يقتلوا أو يجرحوا أو يؤسروا– لم يخسّروا شيئاً فهذا _والله أعلم_ هو سر تقديم الحسرة في السياق على الغلب، فالحسرة الأولى للفريق الأول المِمول على ما أنفق ، ثم الحسرة الثانية بسب الهزيمة للجميع أي للفريقين،و مصيرهم جميعاً إلى جهنم.

إذاً ، فهذه الآية تتحدث عن خبايا النفوس المشركة التي تنفق المال للصد عن سبيل الله ، وهي وإن كانت تنفق المال لذلك الهدف ، فهي تشعر في مكنونها بأنها تسير بأموالها إلى التلف، وهذا الشعور نجح الإسلام في غرسه في نفوس أعدائه على مدار التاريخ.

٣- الترغيب والترهيب

الآية ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال /٣٨)هذاأسلوب القرآن البديع: فإنه عندما يتحدث عن مصير المعاندين والمحاربين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم يذكر ذلك المصير على وجه الحسم والجزم ،ولكن قبل الحديث عن المصير المحتوم يفتح لهم باباً واسعاً للانتظام في صف عباد الله دون محاسبتهم عما اقترفوا بحق المسلمين عندما كانوا كفارا ويعتبر هذا الأمر أعظم عاملٍ في إطماع النفوس في المجيء إلى الإسلام والدخول فيه ،إذ يجد العدو نفسه أمام عفو مطلق لا يتحمل معه أي تبعة لأي شيْ مضى قبل إسلامه ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أسلم من أسلم ممن حارب الإسلام في (بدر)، (وأحد) ،وغيرهما...،والإسلام أعظم نظام عرفته البشرية، فقد حورب حرباً شعواء ، وقُتل كثير من خيرة أتباعه على أيدي رجال أ سلموا ، فيما بعد وحسن إسلامهم وصاروا سيوفاً من سيوف المسلمين، فلو كان من شارك في معركة أحد في صف المشركين – كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما– يعلم أنه إذا جاء إلى النبيﷺ مسلما سيعاقبه – ولو بعقوبة بسيطة – ما أتى ولكنه علم أن الإسلام يجب ما قبله ،وهذا الأمر له أثره الكبير في تشجيع من كان في صف المشركين أن يأتي مسلما (إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) فهذه الآية تؤثر في معنويات الخصم من عدة جوانب منها:

– أنها تفتح الباب للعقلاء من الخصوم بالانضمام إلى صف المسلمين، لمعرفتهم أنهم لن يلقوا إلاَّ الحفاوة والترحاب، والفرح بإسلامهم، وإن كانوا قد حاربوا المسلمين من قبل، وقتلوا عدداً من المسلمين في المعاركفإنه (يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) (الأنفال ٣٨)

– أن هذا الأمر أصاب قادة العدو بنوع من الاهتزاز في التصرفات، واتخاذ القرار،إذ أدرك أولئك القادة أن أفراد معسكرهم إذا أحسوا بالظلم أو المضايقة سيتجهون إلى المعسكر الإسلامي الذي سيستقبلهم بالحفاوة والترحاب ، فيضطر أولئك القادة إلى كثير من المجاملات الزائدة ويتجنبون الاحتكاك المباشر مع الجنود خوفاً عليهم من الفرار، وهذا الأمر له أثره النفسي إذ يصيب القادة بفقدان الثقة بالجنود وهي أهم نتيجة تتوخاها الحرب النفسية.

– ومن ذالك أن معنويات جموع الخصم تهتز عندما يتسرب الأفراد باتجاه المعسكر الإسلامي، فيحدث فيه التزايد بينما يحدث التناقص في معسكر المشركين، ولهذا هزمت قريش معنوياً أكثر من هزيمتها مادياً ،فعندما رأت أهم قادتها وقد اسلموا وانضموا إلى المعسكر الإسلامي، وأصبحوا قادة في جيش الإسلام خارت عزيمتها، ولم يجد (أبو سفيان)عبارة يقولها لقريش يوم فتح مكة سوى:(يا قريش هذا محمدا قد جاءكم بما لا قبل لكم به)[1].

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، ٦/ ١٦٧ ، من حديث طويل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

يقول ابن كثير[١]: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا) أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة (يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم. كما جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها)[٢]، وقوله تعالى: (وَإِنْ يَعُودُوا) أي يستمروا على ما هم فيه (فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة قال مجاهد[٣]: في قوله (فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) أي في قريش يوم (بدر) وغيرها من الأمم) وقال الإمام الشوكاني[٤]: (وفي هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله ــ وإن يعودوا ــ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذي هم عليه ويكون العود بمعنى الاستمرار ــ فقد مضت سنة الأولين ــ هذه العبارة مشتملة على الوعيد، والتهديد

(٢) ابن كثير، الإمام أبي الفداء اسما عيل القرشي الدمشقي ت٧٧٤هـ : تفسير القرآن العظيم – المشهور بتفسير ابن كثير – ، دار المعرفة، بيروت، ط/٢ ،١٩٨٩ م، ٢/ ٣٢٠، ٣٢١

(٣) واه مسلم ١١٢/١ رقم ١٢١

(٤) مجاهد : الإمام شيخ القراء والمفسرين مجاهد بن جبر وقيل بن جبير أبو الحجاج المكي الأسود مولى عبد الله بن السائب تابعي جليل سمع من بن عباس وبن عمر، وعن كثير من الصحابة قال عن نفسه عرضت =القران على بن عباس ثلاثين مرة مات رحمه الله سنة ١٠٣ هـ ينظر ترجمته في : التاريخ الكبير، للبخاري، ٧/ ٤١١ ،والكنى والأسماء، لمسلم، ١/ ٢٦٢، وسير أعلام النبلاء، للذهبي، ٤٤٩/٤.

(١) الشوكاني، محمد بن علي. ت ١٢٥٠هـ: فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية في علم التفسير، دار الفكر، بيروت،١٩٨٣م، ٢/ ٣٠٨.

والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب أي قد مضت سنة الله ، فيمن فعل مثل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب فليتوقعوا مثل ذلك).

أقول هذه الآية تسير باتجاهين احدهما: التعبئة المعنوية للمسلمين ، والآخر تحطيم معنويات الخصوم وسد كل الطرق أمامهم إلا طريق الإسلام أي الدخول فيه، وعجز الآية يتحدث عن المصير المحتوم بصيغة التحقيق على اعتبار أنها سنة ماضية أي قانون سار إلى الأبد ، وهي تحمل حقيقة أنهم لن يجنوا خيراً من حربهم للإسلام ،فإن من حارب الحق المنزل من الله سبحانه لم يجن خيراً وكان مصيره الهزيمة والعذاب، وهذه الحقيقة لها من التأثير على النفس مالها إذ أن من يدخل المعركة، وهو متوقعُ للهزيمة-ولو بنسبة بسيطة- فإن معنوياته لاشك في هبوط، إذ تظل تلك النسبة في ازدياد مستمر حتى تنتهي إلى الهزيمة الفعلية، فكأن القرآن يقول: أيها المعاندون لن تكونوا أقوى من فرعون، والنمرود وغيرهما ممن حارب الله ورسله على مر العصور حيث هزمهم الله ونصر رسله، وهي حقيقة أكدها الله سبحانه بقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة ٢١).

٤- التحذير من مغبة التمادي في حرب الله

الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ٥٩).

تطلق الآية تحذيراً وتهديداً للمحاربين للإسلام الذين يريدون إعادة الكرة لحرب المسلمين ، وأولئك الذين تعنيهم الآية هم الذين أفلتوا من معركة سابقة، إما لهربهم، أو لعدم حضورهم ، فتولد لديهم التحدي، لمواجهة المسلمين، فهذه الآية تقول لهم

: وإن كنتم قد أفلتم من المعركة السابقة ، فإن ذلك لا يعني إفلاتكم من البطش، وأن الله عاجزٌ عن الإحاطة بكم، كلاَّ فإنكم لا تعجزونه أبدا ،و الآية وإن كانت تعني من لم يحضر معركة (بدر)، إلاّ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. كما هو معروف. قال ابن كثير: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ سبقوا أي فاتونا ، فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا وهي كقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (العنكبوت/٤) أي يظنون)[١].

وقال الإمام الشوكاني: (أي أنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم... وقيل المراد بهذه الآية من أفلت من وقعة (بدر) من المشركين، والمعنى: إنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا ، فإنهم لا يعجزون، بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة ،وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ[٢] عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ قال: (لا يفوتونا)[٣].

(١) ابن كثير: مصدر سابق، ٢/ ٣٣٤.

(١) أبو الشيخ: حافظ أصبها ن ومسند زمانه الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري صاحب المصنفات السائرة ويعرف بابي الشيخ ولد سنة أربع وسبعين ومائتين صنف التفسير والكتب الكثير في الأحكام وغير ها توفي سنة ٣٦٠ هـ ينظر: تذكرة الحفاظ، ٣/ ٩٤٥.

(٢) الشوكاني: مصدر سابق، ٢/ ٣٢٠، ٣٢١.

وقال عبد المنعم تغلب: (ولا يظنن من أمهل من الكفار فلم يعاجل ببطش الله أنه أفلت وفات من أن ينكل به، لأنه لن يعجز الله أن ينتقم منه، فهو سبحانه القادر الذي لا يعجزه شيئ في الأرض ولا في السماء)[١].

أقول: تضطرب حسابات الجيوش ، وتهتز معنويات أفرادها بمجرد أن تسمع أن الخصم الذي تواجهه مسنود معنوياً (وهو التأثير الإعلامي والموقف السياسي) ممن هو أقوى منهما- أي من المقابلين _ بفتح اللام-، فكيف إذا هدد أنه يرصد تحركاتها، وأنه ليس غافلاً، بل وسيعاقب تلك الجيوش على اعتدائها، أو مواجهتها لحليفة .

لا شك أن معنويات تلك الجيوش ستهبط إلى الصفر، بل وقد تهزم أمام من هو أقل منها عدداً وعدة.

فالجيش العربي مثلا في حرب ١٩٦٧م كان أكثر عدداً وعدة، وأكثر تدريباً، بل كان أضعاف الجيش (الصهيوني) ، ومع ذلك هزم، وفي تصور الباحث أن تلك الهزيمة ترجع إلى عدة أسباب أهمها السبب المعنوي: وتأثر الجانب المعنوي للجيش العربي آنذاك يظهر في صورتين :

الصورة الأولى : استطاع العدو بوسائله المختلفة أن يثبت لدى الجيش العربي إنه إنما يحارب (أمريكا) وليس (الكيان الصهيوني) ، فتحطمت المعنويات ؛ لأنها كانت مبنية على القوة المادية فقط، والجانب المعنوي لديه هو حب التراب والحرب من

(٣) تغلب،عبد المنعم احمد:فتح الرحمن في تفسير القرآن، دار السلام، ط/ ١، ١٩٩٥م ،٣/١٢٤٤،١٢٤٣

أجل التراب يختلف عن الحرب من أجل العقيدة (طلب الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله) من حيث الثبات ، فالجيش العربي آنذاك تساوى مع الجيش الصهيوني في التشبث بالحياة ، واختلفا في الحشد الإعلامي والسند المعنوي، فكان الجيش العربي يعتقد أنه يواجه أمريكا وهي أقوى مادياً ـ وهذا واقع ـ. وما دامت تساند إسرائيل فهي أقوى مادياً، وهذا من أهم الأسباب التي أدت إلى الهزيمة وسرت في الجيوش العربية مقولة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ (البقرة٢٤٩) أي لا طاقة لنا بأمريكا اليوم.

الصورة الثانية أن الجيوش العربية عندما غاب عنها الهدف الأسمى الذي من أجله تحارب انهزمت معنويا، إذ ماذا يعني الدفاع عن التراب ، فالتراب لن يكون أغلى من الروح، لكن الجندي الذي يدخل المعركة وهو يعتقد أنه يدافع عن ما هو أغلى من التراب[١] ومن النفس، وهو الدين، ويدخل إلى أرض المعركة بنفسية المتّيَقْن بالموت والاستشهاد معتبرا أن الحياة التي سينقلب إليها خير من هذه الحياة تلك والله هي أعلى المعنويات، وهي أقوى من الماديات فالمسلمون الأوائل كانوا أقل عدد وعدةٍ لكنهم كانوا أعلى معنويات من خصومهم فكان لهم النصر والمعارك في التاريخ أعظم الشواهد[٢] والآية﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ التي نحن

(١) لا يعني هذا الدعوة إلى التفريط بالأرض ، وإنما القصد سيادة العقيدة وحب الأرض لا يكون لذاتها وإنما لكونها مكان تطبيق الشريعة،وكونه يعبد الله فيها بحرية.

(٢) ينظر الجبوري:، مصدر سابق، ٢٩

بصدد الحديث عنها تقول: أيها الكفار لا تظنون أنكم بعيدون عن بطش الله بل إنه ينظر إليكم ، ويرصد تحركاتكم، وسيعاقبكم على محاربتكم لأوليائه، ومما لا شك فيه أن هذا الأمرعندما يصل إلى الخصم، فإنه سيدمر معنوياته بشكل كبير. إذ كيف تكون معنويات جيش يحارب خصماً يعلم علماً يقينياً أنه مسنود من القوي العزيز الذي لا يغلبه غالب؟ لا شك أنها ستكون في الصفر.

ثانيا: استغلال حالة الغرور المصطنع عند العدو

١ - المثال التاريخي

- عندما تتسرب معلومات عن خصمٍ ما إلى خصمه قبل الإعداد، مفادها أنه قليل العدد والعدة فعلياً[١] ، فإن تلك المعلومات المتسربة لها أثرها السلبي على الخصم المتسربة إليه إذ تعمل على تثبيطه عن الإعداد والاستعداد ، فيكون أقل من المطلوب، ويصاب بالغرور، ويحدث نفسه أنه قادر على حسم المعركة بأكل

(١) تلافياً عن المجاز المذكور في قوله تعالى ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ ٤٣)،وقوله ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ ٤٤)، إذ أن جيش الكفار كان أكبر عدداً وعدة حقيقيةً إلى جانب ذلك، فإن الرؤية كانت بعد كمال العدة لدى المسلمين وقبل المعركة بساعات وهذا تأثيره أقل مما لو كان قبل المعركة بوقت طويل.

تكلفة ، وهذا الأمر (الغرور) لا علاقة له بنوع العقيدة التي يدين بها المتحاربون، وهذا ما أ شار إليه القرآن[١].

- لا شك أن الخصم إذا أدرك أنه مهما جمع من قوة ومهما أعد من عدة، ومهما صنع من مكائد، فإنها لا تقوى على مواجهة خصمه ؛ لأنه مسنود بقوة أخرى كبرىهولا يعلمها إن هذا الشعور إذا خالطه، فإنه سيدخل المعركة بمعنويات هابطة تنتهي به إلى الهزيمة، وهذا هو عين الحرب النفسية، وقد أجادها الإسلام بشكل منقطع النظير، إذ أن حال من حارب الإسلام من أول يوم كان هذا شعوره، وإن كتمه عن الغير، وهو حال كل من وقف في وجه الإسلام عبر التاريخ ؛ لأنه يشعر أنه لا جدوى من أي إعداد، فكل جيش كان يلتقي بالجيش الإسلامي كان يدخل المعركة، وهو يتوقع الهزيمة بنسبة معينة والأمثلة التالية توضح هبوط معنويات أعداء الإسلام في كل العصور وإدراكهم مسبقاً للهزيمة، ويأسهم من جدوى الإعداد والاستعداد في مواجهة المسلمين. فهؤلا المشركون قبل معركة (بدر) قد آتاهم ما هز معنوياتهم بشكل كبير فمن ذلك:

- **رؤيا عاتكة**:(عن عاتكه بنت عبد المطلب قالت رأيت راكبا أخذ صخرة من أبي قبيس فرمى بها للركن فما تركت الصخرة دارا من دور قريش إلا دخلتها، منها دور بني زهرة)[١]

(٢) ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة/٢٥

– **رؤيا جهيم بن الصلت** : (رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب ابن عبد مناف رؤيا فقال: إني رأيت فيما يرى النائم ، وإني لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف ، وفلان وفلان ، فعدد رجالا ممن قتل يوم (بدر) من أشراف قريش ثم رأيته ضرب في لبة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه)[٢]، فهذه المقدمات جعلت بعض قادة قريش يتراجعون عن خوض المعركة فهذا الأخنس ابن شريق قام(فقال لبني زهرة: يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جبنها وارجعوا ، فرجع معه بنو زهرة)[٣] وقام عتبة بن ربيعة فقال:(يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه

(١) أخرجه الهيثمي، في مجمع الزوائد، ٦/٧٠، وقال : رواه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن.

(١) ابن هشام ، عبد الملك الحميري المعافري أبو محمد ت ٢١٣هـ : السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤف سعيد، دار الجيل، بيروت، ط/١ ،١٤١١هـ، ٣/ ١٦٥.

(٢) الطبري ،محمد بن جرير أبو جعفر– ت ٣١٠هـ :تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية،بيروت ، ط/١، ١٤٠٧هـ، ٢/٢٩.

فذاك الذي أردتم)[١] كل ذلك أصاب معنويات المشركين بمقتل لدرجة أن أبا جهل لم يجد ما يستثيربه القوم قبل المعركة إلاَّ أن دفع عامر بن الحضرمي (فقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك ، فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ واعمراه واعمراه ، فحميت الحرب)[٢] ثم جأت مقولة عمير بن وهب الجمحي الذي أنتدبه الجيش المكي لاستطلاع الجيش الإسلامي قبل المعركة لتقضي على البقية الباقية من المعنويات حيث قال في وصفه للجيش الإسلامي:(ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا، أو ينقصون ،ولكن أمهلوني حتى أنظر ألهم كمين أم مدد؟ قال فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئا ، فرجع إليهم ، فقال ما رأيت شيئا ، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم)[٣] فهذه المقولة وإن كان فيها تحريض لقريش على الثبات إلا أنها تحمل تثبيطا ظهر من خلال وصف القوم ، وكون المتكلم يميل إلى السلامة، أوالرجوع (فروا رأيكم) فوصفه بين بوضوح صلابة جيش الإسلام ، واستحالة هزيمته إلاَّ أن يفنى عن أخره، وذلك هز معنويات الجيش المكي كونه سيقابل من

(٣) الطبري:التاريخ، مصدر سابق، ٢/ ٣١

(٤) ا لمصدر نفسه .

(١) المصدر نفسه، ٢/٣٠.

هم بتلك الصفات التي ذكرها (عمير) وبهذا فقد دخل الجيش المكي المعركة بروح مهزوزة جداً فلما تقابلا الجيشان ، ورأى الناس مصرع بعض من ذُكروا في رؤيا (جهيم) فروا هاربين وكانت الهزيمة.

وهناك أمثلة أخرى تبين مدى يأس خصوم المسلمين من الانتصار فمن ذلك:

- **مقولة أبي سفيان** يوم الفتح ، قال للعباس: وهو ينظر إلى جيش المسلمين قبل يوم الفتح عندما رأى كتيبة رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار.(سبحان الله يا عباس من هولاء؟ قال العباس : قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة...فرجع إلى قومه في مكة (حتى إذا جاءهم صاح بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمدٌ قد جاءكم بما لا قبل لكم به)[١].

- **ما روي عن أحد قادة جيش الروم**.(ويسمى(القبقلار) أنه بعث رجلاً عربياً من قضاعة عيناً له بين المسلمين ، وقال له: ادخل في هؤلاء القوم ، فأقم فيهم يوماً وليلة، ثم أتني بخبرهم قال: فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر، فأقام فيهم يوماً وليلة ، ثم أتاه ، فقال له:ما وراء ك؟ قال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ولوزنا رجم لإقامة الحق فيهم، فقال له(القبقلار): لئن صدقتني لبطن الأرض خيرمن لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن أحظى من الله

(١) ابن هشام: مصدر سابق، ٧٤/٤ .

أن يخلي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي)[١] فهذا القائد لشدة يأسه من النصر قال تلك المقولة، ولا يقول هذا إلا من وصلت معنوياته إلى أدنى مستوياتها.

– موقف هرقل :وهذا هرقل يسأل عن المسلمين (فقال وهو على (إنطاكية) لما قدمت منهزمة الروم ويلكم اخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى قال: فانتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن قال: فما بالكم تنهزمون: فقال شيخ من عظمائهم: من اجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم ، ومن اجل أنا نشرب الخمر ونزني ، ونركب الحرام وننقض العهد ، ونغصب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضى الله ونفسد في الأرض فقال: أنت صدقتني)[٢] فهذا الوصف للهزائم المتكرر والتساؤل عن أسبابها أوصلت هرقل إلى اليأس من مواجهة المسلمين ،والتسليم بما قال ذلك الشيخ (أنت صدقتني) ولقد اشتهر على الألسن مقولة يقال أنها لأحد ملوك الصين حينما أستنجد به أحد الملوك ضد المسلمين فقال: مالي ولقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها)

(٢) الطبري: التاريخ، مصدر سابق ٢/ ٣٤٧ ، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي،٣/ ١٥٤.

(١) بن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء ت٧٧٤هـ، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت– ٧/ ١٥ ،محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ١٥٤/٣.

– مقولة المقوقس :وهذا المقوقس عندما (حاصره عمرو بن العاص جمع اساقفتة ، وأكابر دولته وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا قيصر، وأزالوهم عن ملكهم ، ولا طاقة لنا بهم ، والرأي عندي أن نؤدي الجزية إليهم)[١].

ولم يخل العصر الحاضر من الأمثلة.

ففي حين ينعدم الكيان الإسلامي المتمثل في دولة تتبنى الجهاد بمفهومه الشامل[٢] نجد جماعات هنا وهناك تقوم بأعمال الجهاد (القتال) بأساليب شتى، وبروح معنوية عالية أذهلت الخصم الأمر الذي جعله محتارا في كيفية المواجهة، مع تيقنه من عدم القدرة على إحراز النصر الكامل.

فهذا أحد القادة اليهود في حرب فلسطين ١٩٤٨م يقول: إننا لا نخشى الجيوش العربية مجتمعةً، وإنما نخاف من هولاء –ويقصد المتطوعين من المجاهدين – فقال له شخص : وما الذي يخيفكم من هولاء وهم قلة، ولا تخافون من الجيوش العربية؟ فقال ذلك القائد: نحن والجيوش العربية متساوون في التشبث بالحياة فنحن أتينا من كل أنحاء العالم لكي نعيش، والجيوش العربية تقاتل لكي تعيش، أما هؤلاء–ويعني المتطوعين – فإنهم جاءوا لكي يموتوا[٣].

---

(٢) ابن كثير :المصدر نفسه ٧/ ٩٩.

(٣) المفهوم الشامل للجهاد يعني: البناء والصيانة للصف الإسلامي، ونشر الإسلام خارج الإطار الإسلامي.

(١) العالم ،جلال: قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله ،الكتاب محمل على موقع نداء الإيمان (www.al-eman.com) .

وهذا الرئيس الأمريكي السابق (رونلد ريغان) يسأله سائل: يا(ريغان) أين كنت حينماُ ضُرب مقر قوة(المارنز) في لبنان؟ – وكان قد نسفته المقاومة في لبنان فقتل كثير من عناصر (المارنز) فقال (ريغان): إني اسئلك سؤالاً أنت ما ذا ستصنع لمن جاءك يريد أن يموت ؟ فسكت السائل، وريغان يقصد أن من قام بنسف مقر قوات (المارنز) مجاهدون جاءوا لطلب الشهادة (الموت)[١]فهذه لأمثلة وما سبقها تبين أن الخصم عندما يدرك أنه مهما صنع فإن مصيره إلى الهزيمة ، تهتز معنوياته اهتزازا قوياً، بل ويقلل من استعداده للمعركة لأنه يصل إلى نتيجة مفادها: أنه يسير إلى الهزيمة سواء أعدَّ أو لم يعد، فالنتيجة واحدة، والمعارك التي حدثت بين المسلمين وخصومهم كان الخصم يشعر دائماً بأنه مهزوم لا محالة، وإنما كان يدخل المعركة على سبيل العناد والمكابرة، متجاهلاً قوة خصمه عن قصد ، مغتراً بقوته منهزماً في داخله ، وفي المطالب التالية نعرض لبعض الصور التي تثبت ذلك

٢ – الإخبار بإضعاف الكيد

الآية ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ١٨). قال ابن كثير: (هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنْ أَعلمْهم أنه تعالى مُضْعِفٌ كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم، وأنهم كل مآلهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة)[٢].

(٢) من محاضرة للشيخ عبد المجيد الزنداني،أوائل عام ١٩٨٦م في أحد مساجد صنعا، كان الباحث أحد الحاضرين، وكان الشيخ يتحدث عن الجهاد في أفغانستان.

(١) ابن كثير: مصدر سابق، ٣٠٨/٣.

وقال صاحب الظلال: (وهذه أخرى بعد تلك الأولى، إن التدبير لا ينتهي عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم ويصيبهم برمية رسولكم ويمنحكم حسن البلاء ليأجركم عليه.. إنما يضيف إليه توهين كيد الكافرين وإضعاف تدبيرهم وتقديرهم)[١] فهذه الآية تجعل العدو يدرك أنه مهما جمع، ومهما أعد ، فإن كيده ضعيف، والتوهين المقصود بالآية بدرجة أساسية هو: إدخال الانهزام النفسي في قلوبهم، أي ضعف الروح المعنوية، وإن كان يملك أكبر عدد من الجيش وأكثر عدة.

قال القرطبي﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ... والمعنى: أن الله عز وجل يلقي في قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ، ويتفرق جمعهم ، فيضيعوا الكيد والمكر)[٢]

والأمثلة التي ذكرناها سابقاً تبين أن المشركين ،ومن بعدهم كانوا يواجهون المسلمين، وهم على يقين من قصر استعدادا تهم ، واعترافهم بأن المسلمين أعلى معنوية منهم، وإضعاف كيد الكافرين لم يكن قاصراً على كيد مشركي العرب، بل يتعداه إلى كل مشركي الدنيا وكفارها على مر العصور سابقاً وحاضراً، ومستقبلاً فإن لفظة (موهن) الواردة في الآية هي اسم فاعل، والتعبير بالاسم في اللغة- كما هو معلوم- يدل على الاستمرار والثبات ،وعلى ذلك فالوهن في كيد الكافرين مستمر ، ويدل على لزوم

(٢) سيد قطب ت ١٩٦٦م : في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط/١١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ٣/ ١٤٩٠.

(١) القرطبي:مصدر سابق، ٣٨٦/٧.

الوهن في أي جيش يريد محاربة الإسلام في كل عصر لأنه دين الله الخاتم، وقد تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر/٩). وهذا الأمر راسخ في نفوس من يريد حرب الإسلام ، لذلك تيقن خصومه أنهم لا يستطيعون قهر المسلمين مادام الإيمان هو المحرك لهم يقول(جلادستون) رئيس وزراء بريطانيا السابق: (مادام القرآن موجوداً ، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان) ويرى المستشرق (غاردنر): (إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربا)[1] ولذلك فقد ابتكروا حرباً من نوع آخر ، وهي حرب الأفكار، إذ عمدوا إلى صرف الناس عن المحرك الذي يستحقون بالالتزام به النصر: ألا وهو الإسلام ؛ لأنهم يدركون أن تمسك المسلمين به يعني انتصارهم فإذا ابتعدوا عنه لا نصر لهم ،وهذا هو واقع المسلمين اليوم، وقد بدأت حركة الاستشراق من وقت مبكر، ومهدت للاستعمار العسكري في العالم الإسلامي فجاءت الجيوش تحمل بندقية وثقافة فرضتها بكل الوسائل، فلما أطمأن المستعمر بأن ثقافته قد عُممت، ونجح في عزل جماهير المسلمين عن الإسلام انسحب وخلف أتباعاً رباهم على عينه يؤّمنُون على كل ما قاله أو فعله، وظل الأمر كذلك حتى ظهرت الصحوة الإسلامية، وبدأت تطالب المسلمين بالعودة إلى دينهم، فنظرت الدول الاستعمارية

(١) العالم، جلال: قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله ،الكتاب محمل على موقع نداء الإيمان (www.al-eman.com) .

إلى تلك الصحوة نظرة الخائف، فقامت بمواجهتها بكل أنواع الوسائل ومع ذلك فهي في نمو مستمرلن يضرها- إن شأ الله- كيد الكائدين ،أو تآمر المتآمرين ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

٣ - الجزم بالهزيمة المحققة لخصوم الإسلام وإن كثر ت أعدادهم

الآية ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٩).

قال الإمام الشوكاني (الاستفتاح طلب النصر ، وقد أختلف في المخاطبين بالآية من هم؟ فقيل: أنها خطاب للكفار تهكماً بهم والمعنى : إن تستنصروا الله على محمد ، فقد جاءكم النصر، وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر، فتهكم الله بهم وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً، وقيل : الخطاب للمؤمنين، والأول هو الراجح لدلالة بقية الآية عليه)[١]

(١) الشوكاني: فتح القدير، مصدر سابق، ٢/ ٢٩٧.

وقال صاحب الظلال (وفي ظل هذا الإيحاء، يرغبهم في الانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر، والحرب للمسلمين والمشاقة لله ورسوله (وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) ومع الترغيب والترهيب: (وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ) والعاقبة معروفة لا يغيرها تجمع، ولا تبدلها كثرة (وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ) وماذا تفعل الكثرة إذا كان الله في جانب المؤمنين (وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ).. ولقد كان مشركوا العرب يعرفون هذه الحقيقة، فإن معرفتهم بالله سبحانه لم تكن قليلة وسطحية، ولا غامضة)[1].

من الواضح أن هذه الآية نزلت بعد نهاية معركة (بدر) الكبرى، وهي تبين أن الله يريد أن تظل نتيجة المعركة وانتصار المسلمين فيها في أذهان المشركين فكأنها تقول: يا أيها المشركون قد أعددتم العدة لمواجهة المسلمين وكانت النتيجة هزيمتكم ونصر المسلمين عليكم، وهذا الأمر لا يختص بمعركة (بدر) فقط ، فإنكم إن أعددتم لأي معركة ضد المسلمين مستقبلا ، فستكون النتيجة هي الهزيمة، ولا تظنوا أن الهزيمة ببدر كانت بسبب قلة عددكم أوعتادكم، وحتى لو كان عددكم وعتادكم أكثر فإنها ستكون الهزيمة؛ لأن الله مع المؤمنين ، والتهكم الوارد في الآية على المشركين الذين خرجوا لتأديب المسلمين في (بدر) -على حد زعمهم- وعلى رأسهم فرعون هذه الأمة أوضح بيان لخيبة آمالهم في الانتصار على المسلمين بعد (بدر)، إذ أن المشهد الذي صورته الآية -تهكما- ظل شاخصاً وظلت قريش تجتر أحزان (بدر) حتى

(١) سيد قطب:في ظلال القرآن، مصدر سابق، ١٤٩١/٣.

بسط الإسلام نفوذه على كامل الجزيرة العربية، وانتهت قريش كطرف في مواجهته، والآية وإن كانت رداً متهكماً على استفتاح أبي جهل قبل المعركة بأن ينصر الله أحق الطائفتين[١]، فإن مدلولها النفسي سيظل إلى قيام الساعة، لأن الخطاب وإن كان لمشركي مكة، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) فالاعتقاد بمعية الله للمؤمنين يؤثر إيجاباً على المؤمنين ما هتفت ألسنتهم بـ (الله أكبر)، ويؤثر سلبا على خصومهم . وهذه الآية تزيل ما قد يقع لدى البعض من اللبس من أن إضعاف كيد الكافرين المذكور في الآية السابقة خاص بما يتعلق بجانب المخادعة والمكايدة، أما العدد إذا كان كثيراً ، فلا سبيل إلى مواجهته إلاَّ بعدد مكافئ له، فجاءت هذه الآية بالتصريح (وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ) فلا كيد ولامخادعة ، ولاعدد ولا عدة تنفع في مواجهة من هم في معية الله، ؛ لأن الخصم هنا ليس كما يظنون بشراً يأكل الطعام، ويتأثر بالعوامل المادية فقط،، وإنما هو بشر يحمل ديناً لم يدركوا طبيعته ودوره في الحياة، فذلك الدين جاء ليبقى ، ويكون هو الأعلى ، وما دام كذلك ، فلا مجال لأتباعه إلا أن يكونوا هم الأعلى ، وإلا، فالموت أولى.

(٢) روى الاستفتاح المذكور : الحاكم، في المستدرك، ٣٥٧/٢ ، رقم ٣٢٦٤، عن عبد الله بن ثعلبة.

طريقان لا ثالث لهما إما العزة وإما الموت، ومن كان ذليلاً فهو في عداد الموتى حتى ينفض عن نفسه غبار الذل، ولا يحصل له ذلك إلاّ بالإيمان ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران/١٣٩).

وطبيعة هذا الدين لم يدركها الخصم ، أو أنه يدركها ،ولكنه يحاول التغاضي عنها حقداً وعناداً وكبراً ،فمشركو العرب لم يكونوا أقل فهماً ممن سبقهم الذين قال الله عنهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ النمل١٤) وعلى ذلك ، فقد كانت معنويات المشركين في انهيار مستمر حتى انتهت قريش كأكبر قوة في الجزيرة العربية، وقد ظلت هذه الآية تقرع في أذانهم بأجراسها، وإيحاءاتها الجازمة (فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) (وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ) (وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ) (وَلَنْ تُغْنِيَ) نعم لن تغني (وَلَوْ كَثُرَتْ) نعم ولو كثرت، ولو بلغ أعدادها أضعاف المؤمنين. لماذا؟ لأن الله مع المؤمنين. ومن له طاقة وقبل بمن يقف بجهةٍ الله ؟.

ثالثا: إرهاب الخصم بالمعركة ونتائجها

١- الإسلام وهدف القتال

ينطلق هدف القتال من طبيعة الإسلام وهدفه العام، وأبرز هدف للقتال هو:تحرير الإنسان من عبودية الإنسان وتعبيده لله وحده، وهو ما عبر عنه الصحابي الجليل ربعي بن عامر في معركة القادسية عند ما سئل ما الذي جاء بكم؟ فقال: (الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى

سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لدعوتهم إليه،، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه،ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله قال رستم: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي)[١] وهو هدف الإسلام، والجهاد جزء منه، والقتال جزء من الجهاد، فالهدف بالجملة هو تعبيد الإنسان لله وحده قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات٥٦)

وهناك أهداف أخرى جزئية ستتضح من خلال الكلام في هذا المطلب ، والإسلام دين السلام والمحبة والوئام، وأحكام الإسلام تهدف إلى حماية الإنسان وصيانة عقيدته وعرضه وماله، فهي تدور حول الكليات الخمس- كما ذكر الأصوليون- (حماية الدين والنفس، و العقل و العرض، ،والمال)[٢] والقتال كتشريع يصب في هذا الاتجاه، ويحتل الإنسان في التشريع الإسلامي مكانة عالية ،ويحرص عليه الإسلام حرصاً شديداً، حتى مع الاختلاف في الدين ، فالمعاهد، والمستأمن في ظل الدولة الإسلامية،عقيدته مصانة ،وهو معصوم الدم، وماله وعرضه لا يجوز التعرض لهما، وفي أرض المعركة لا يُقتَلُ شيخ، ولا امرأة، ولا طفل، ولا راهب في صومعته ، وفي فقه القتال يحرص الإسلام أن لا تتعدد المعارك ، فإذا كانت المعركة الواحدة تكُفُّ أكثر من خصم في آن واحد كان حسناً، فالقتال كغيره من أحكام الشريعة

(١) الطبري: التاريخ، مصدر سابق، ٤٠١/٢، محمود شاكر: مصدر سابق، ١٧٥/٢.

(١) خلاف،عبد الوهاب: علم أصول الفقه ،دار القلم، الكويت، ط/٢٠ ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ١٩٩.

الإسلامية العقابية يهدف -بالدرجة الأولى- إلى الردع، ويهدف إلى الوقاية أكثر من هدفه إلى العقاب ؛ لذلك فمعارك الإسلام_ عبر التاريخ_ كان المسلمون فيها يحرصون على إيلام الخصم المتقابل معه في أرض المعركة، فيبلغ الأمر المتربص فيؤثر السلامة ، ولا يتجرأ على حرب المسلمين، والإسلام يدفع الحرب قبل حدوثها، إذ يعتبرها آخر ورقة يستخدمها مع الخصم، فالدعوة إلى الإسلام، ثم الدعوة إلى دفع الجزية، ثم القتال وهو موجه إلى صدور المتسلطين على رقاب البشرية الذي يشكلون حاجز الفصل بين الناس وبين حرية الاعتقاد ، وهو بهذا يدافع عن عقل الإنسان وإرادته وحريته ، فحرب الإسلام إنما تكون موجهةً ضد من يتسلط على الإنسان ويفرض عليه عقيدةً معينةً بشكل قسري، ويحول بينه وبين ما يشتهي ، ولذلك ، فإن أولئك المتسلطين إذا استسلموا ورضوا بدفع الجزية للدولة الإسلامية، فإنه يتوجب عليهم أن يخلوا بين الناس وبين ما يريدون من العقائد، فإن رضخوا لهذا الأمر، وإلاَّ فهم محاربون لتعديهم على حقوق الإنسان في أن يختار مايشاء ، وإذا دخل الإسلام في حرب مع خصم فإنها يجب أن تكون مؤلمةً محققةٌ لأهدافها القريبة والبعيدة، ومن خلال الاستقراء لما طرقته سورة الأنفال وتحدثت عنه: تبين أنها تهدف إلى أن تكون نتائج المعركة القتالية التي يتوخاها الجيش الإسلامي منحصرة في أربع صور: الأولى القتل، الثانية الجرح، الثالثة الأسر ، الرابعة الإرهاب. أي أن جيش الخصم يجب أن لا يخرج عن الصور الأربع المذكورة إما قتيلاً،أو جريحا،أو أسيرا أو مرهوباً،ومعنى مرهوباً- خائفا فارا- وبذلك يتحقق الردع المطلوب من

القتال كتشريع، لذلك يعد الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر[١] لأنه يذهب أهم أهداف القتال وهو الردع ،ولا يتحقق من المتخاذلين الفارين[٢]، والإسلام لا يقبل نتيجة أي معركة قتالية بين المسلمين وخصومهم ما لم يكن الظهور فيها للإسلام، والانتكاسة لخصومه، ولهذا فقد عمل الإسلام بكل قواه الروحية على توجيه المسلمين لتحقيق هذه النتيجة، فقد رفع مكانة الشهيد و قال عنه :أنه انتقل من حياة إلى أخرى هي أفضل بكثير من هذه الحياة الدنيا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) آل عمران.

وبهذا ، فالإسلام يدفع دفعاً للسباق والاجتهاد لتحصيل تلك الحياة الهانئة التي لا توازيها حياة ، وهذا التحفيز الذي اتخذه الإسلام للترغيب بالقتال جعل المسلمين لا

(١) فقد قال النبي ﷺ : (ثم اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) رواه البخاري ١٠١٧/٣ رقم ٢٦١٥،ومسلم ٩٢/١ رقم ٨٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه،ففي هذا النص عد الفرار من الزحف من الموبقات:أي المهلكات.

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ(١٥)وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال/١٦

يدخلون معركة إلاّ وهم يرفعون شعار (النصر أو الشهادة) وفي المطالب التالية سنتحدث عن بعض الصور التي ذكرتها السورة وهي تصب في مجملها في إرهاب الخصم بما تشنه من حرب نفسية داخل الميدان و خارجه، وتتخذ الأسلوب العملي التصويري في تنفيذ ذلك.

٢- تصوير السيوف وهي تهوي على الرقاب والبنان:

الآية: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢).

وهذه الآية تصور حركة السيوف وهي تهوي على الرقاب والأطراف تصويرا يكاد السامع أن يبصره ، والغاية من هذا التصوير هي إدخال الرعب في نفوس الأعداء ، والنص ، وإن كان إخباراً عما أوحى الله للملائكة إلاَّ أن فيه إشارة واضحة إلى كيفية إيقاع الألم في الخصم بضرب الرقاب، وإشارة إلى شدة الالتحام والهجوم الشديد على الخصم، لإرهابه وإرهاقه، ويجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين مباشرة يقول الطبري :(يقول تعالى ذكره: سأرعب قلوب الذين كفروا بي أيها المؤمنون منكم ، وأملؤها فرقا حتى ينهزموا عنكم فاضربوا فوق الأعناق..... وأما قوله واضربوا منهم كل بنان، فإن معناه واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم)[١]

وقال الزمخشري: (ويجوز أن يكون قوله (سألقي..) إلى قوله كل بنان عقب قوله: (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) تلقيناً للملائكة بما يثبتونهم به كأنه قال: قولوا لهم قولي سألقي في

(١) الطبري: التفسير،مصدر سابق، ٩/ ١٩٨ ،١٩٩.

قلوب الذين كفروا الرعب، أو كأنهم قالوا: كيف نثبتهم؟ فقيل: قولوا لهم قولي: سألقي...الآية ، فالضاربون على هذا هم المؤمنون)[١].

وقال القرطبي: (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان كأنه يقول قد أزحت عِلَلَكم وأمددتكم ،فاضربوا منهم هذه المواضع :وهو المقتل لتبلغوا مراد الله في إحقاق الحق وإبطال الباطل والله أعلم)[٢].

وقال العلامة ابن كثير:(وقوله سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب أي ثبتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان أي اضربوا الهام فافلقوها واحتزوا الرقاب فاقطعوها واقطعوا الأطراف منهم)[٣].

وعلى هذا فإن جو المعركة بتصوير هذه الآية يدل على مدى الإيلام الذي يجب إيقاعه في الخصم (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) قال صاحب الكشاف: (فوق الأعناق) على الأعناق التي هي المذابح لأنها مفاصل فكان إيقاع الضرب فيها حزا، وتطييراً للرؤوس، وقيل أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق... والبنان الأصابع يريد الأطراف، والمعنى فاضربوا المقاتل والشوى[٤] لأن الضرب إما واقع على

(٢) الزمخشري: مصدر سابق، ١١٨/١.

(١) القرطبي: مصدر سابق، ٣٦٨/٧.

(٢) ابن كثير :التفسير، مصدر سابق، ٢٩٣/٢.

(٣) الشوى : (اليدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس وجلدة الرأس يقال لها شواة وقال الزجاج: الشوى جمع الشواة وهي: جلدة الرأس) لسان العرب ٤٤٨/١٤.

مقتل أو غير مقتل فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين معاً..)[١].وبهذا فإن المحاربين للمسلمين في المعركة يجب أن ينتهي الرجل منهم إلى إحدى الحالات الثلاث : إما مقتولا أو مأسورا أو فارا ، والفار إما مشوها(مبتور احد أطرافه) أو مرعوبا، وكلا الصورتين تؤديان الغرض المطلوب من إرهاب الآخرين ،وكل معركة من معارك الإسلام يجب أن تكون هذه نتيجتها وقد شدد القرآن على ضرورة الالتحام والنهي عن الفرار من أرض المعركة قال تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦) الأنفال .

فالآية دلت بدلالة الإشارة[٢] إلى أن التولي يوم الزحف يفتح الباب لمعارك قادمة ومتتابعة ، وهذا مالا يريده الإسلام ؛ لأنه يريد من الجيش المسلم إذا ضرب سدد الضربة وأوجع حتى لا يفكر الخصم في مقاومته ، فيكون الاستسلام والسلام وهو المراد، ومعلوم أن المسلمين في معاركهم كانوا يرفعون شعار (النصر أو الشهادة) وكانوا لا ينظرون إلى النصر بقدر ما ينظرون إلى الاستشهاد ، لأنه اقرب الطرق إلى الجنة قال تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء٧٤).

فمنطوق الآية يدل على أن الشهادة أولا(يُقتل)والنصر ثانيا(يَغلِب)أي ينتصر، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(٤) الزمخشري: مصدر سابق،١/ ١١٨.

(١) المعنى الذي يتبادر فهمه من اللفظ، ولا يقصد من سياقه،ولكنه لازم للمعنى.ينظر خلاف ،١٤٥.

(الصف١٣)،وهذا يعني أنَّ هناك أولى ،ومن المعلوم أن أي قوة تعلم شدة وبطش من يقابلها تصاب بالانهزام النفسي، وتصوير المشهد في هذه الآية يجعل كل خصم من الخصوم يتحسس رأسه وأطرافه، ويتخيل القطع والبتر والحز مما يجعله يهتز ويرتعب وتنخفض معنوياته ، وذالك هو المطلوب.

٣- إيقاع الألم في المواجه ليرتدع المتربص..

الآية ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنفال/٥٧).

قال ابن كثير (فإما تثقفنهم في الحرب أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب فشرد بهم من خلفهم أي نكل بهم قاله ابن عباس والحسن البصري[١] والضحاك[٢]ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة لعلهم يذكرون))[٣]وهذه الآية تأكيد للآية السابقة ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ولكن هذه الآية صريحة في تحديد الهدف من

(١) الحسن البصري : أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري كان من سادات التابعين وكبرائهم جمع كل فن من علم وزهد وورع عبادة ، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ،وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ت سنة ١١٠هـ ودفن في البصرة . ينظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٦٩/٢ وطبقات المفسرين ١٣/١.

(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد وقيل أبو القاسم صاحب التفسير كان من أوعية العلم وليس بالجود لحديثه وهو صدوق في نفسه حدث عن أبي سعيد الخدري وابن عمر وأنس بن مالك وعن الأسود وسعيد بن جبير وعطاء وطاووس وطائفة قال سفيان الثوري: كان الضحاك يعلم ولا يأخذأجرا ت سنة ١٠٢هـ ينظر ترجمته في طبقات المفسرين، ١٠/١، وسير أعلام النبلاء، ٤/ ٥٩٨ .

(٣) ابن كثير: التفسير، مصدر سابق، ٢/ ٣٢١.

إيقاع الألم، فشدة البطش وقسوة العقوبة ليس المقصود منه أولئك الذين بساحة المعركة فحسب، بل ما ينزل بهم من القتل والإيلام ما هو إلا رسالة إلى غيرهم حتى لا يجرؤا على حرب المسلمين ، وإذا كانت الآية السابقة تصور مهاوي السيوف بشكل تفصيلي (﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ...) فإن هذه الآية تشير إلى إيقاع الألم فحسب ، وفيها إشارة إلى أن المعركة قد تكون بغير السيوف والرماح _أي بالأسلحة التقليدية_ وبالتالي فإن الإيلام هو المطلوب سواء كان بالسيف أو بغيره المهم حدوثه ووقوعه، وعلم الخصم بما سيحدث له ولمن خلفه من البطش والتشريد يجعله يفكر ألف مرة قبل أن يقدم عل أي عمل عدائي ضد المسلمين، ولاشك أن معنوياته ستنهار ويؤثر السلامة، وهذا ما حدث بالفعل لزعيم بني (قريظة) كعب بن أسد عندما جاءه حيي ابن اخطب ليطلب منه نقض العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم (إذ قال: له حيي جئتك بعز الدهر وببحر طام...فقال كعب: بل جئتني بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه....)[1] إذ انه من خلال ما رأى من صنيع النبي صلى الله عليه وسلم ببني عمومته ،بني(النضير) وبني (قينقاع) فلم يتقدم ويستجب لحيي بنقض العهد إلا بعد أن ظل يفتله ويحاول إقناعه فاستجاب مع هزيمته النفسية التي أدت بالفعل إلى الهزيمة الفعلية والتي كانت كما قال :(ذل الدهر)

(١) الطبري: التاريخ،مصدر سابق، ٩٣/٢، المبارك فوري: مصدر سابق، ٢٩٧.

٤- القوة للردع أولا.

الآية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال ٦٠).

إن تفادي الحرب قبل حدوثها أمر يحرص عليه الإسلام، ويسعى له ويتخذ لتجنبه أساليب شتى ، ومن تلك الأساليب التي يتخذها: إعداد القوة، فهو عندما يعد العدة، قد لا يكون الغرض منه القتال ، وإنما المراد منه إخافة العدو حتى يكف عن القتال والأذى.

وهذه الآية تهدف إلى أمرين أحدهما: إعداد القوة لإرهاب الخصم المتقابل معه فتضعف رغبته في القتال ومقاومته وينهزم، والثاني: إرهاب الخصم المتربص فلا يجرؤ على المقابلة ، ويرضى بالسلام حتى لا يكون مصيره كمصير من سبقه﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الحشر ١٥).

يقول صاحب الظلال: (انه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها

الأمر الثاني : أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكرون في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة.

الأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في مواجهة المد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها.)[١] ومعلوم أن وصول معلومات إلى جيش ما عن الجيش الذي سيقابله تصفه بالشدة والبأس والبطش لاشك ستعمل عل شل فاعليته وتهزه هزا نفسيا عنيفا قد توصله إلى خيار الاستسلام قبل الدخول في المعركة وهذه غاية المراد بالنسبة للقوة الإسلامية

٥- الإثخان لإضعاف شوكة الخصم.

الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال٦٧).

الإثخان هو الإمعان والمبالغة في القتل وهذه الآية تشير إلى حادثة الأسرى التي وقعت بعد(بدر) وهى تعارض –وبشدة- أن يكون هناك أسرى قبل الإثخان الذي يهدف أساسا إلى إضعاف شوكة الخصم وإيقاع الألم به حتى لا يتكرر منه العدوان ضد الإسلام، وهذا يعني أن الجيش الإسلامي يجب أن لا تأخذه شفقة ولا رحمة فيمن يحارب الإسلام فإذا تمكن من الخصم أوقع فيه الإثخان حتى يقلل عدد محاربيه ويكسر كبرياءه ، وحتى لا يتجرأ الذين لم يشتركوا في المعركة على محاربته ،إذ أن مشاركتهم تعني الهلاك ، وهو مالا يرضونه ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة٩٦).

(١) سيد قطب، في ظلال القران ١٠/١٥٤٣

ونظن أن المسلمين لواخذوا برأي عمر القائل بقتل الأسرى(حتى يعلم الله انه ليس في قلوبنا هوادة لهؤلاء)[١] فإن الوضع سيكون مختلفا في معركة (احد) إذ يمكن لذالك الإثخان الذي أراده الله أن يمنع الكفار من معاودة الكرة والتجييش لأُحُد فان تذكرهم لمئة وأربعين من صناديدهم وقادتهم سيقلل من فاعليتهم وسيحسبون ألف حساب لرسول الله وأصحابه، ولكن قدر الله وما شاء فعل .

(١) رواه ابن أبي شيبة، في مصنفه، ٣٥٨/٧،رقم ٣٦٦٨٤، والإمام أحمد في مسنده، ٣٠/١، رقم ٢٠٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الخاتمة

من خلال التنقل في ظلال آيات سورة الأنفال ندرك إنها تعرض صورا قوية من صور الحرب النفسية، وهي وان كانت تعرض لتفاصيل من معركة (بدر) الكبرى إلا أنها أسست لمنهج بديع قوي في الحرب النفسية سيظل نبراسا تستلهمه العقول وتسير وفق خطاه لتحقيق النصر، ومن خلال عرضنا لتلك الصور؛ نتبين أن سورة الأنفال وضعت منهجا لاستخدام الحرب النفسية قبل المعركة، وأثناء المعركة، وبعد المعركة، وهو المنهج المتكامل في المواجهة بين القوى العسكرية في عصرنا الحاضر، فان القوى المتحاربة في الوقت الحاضر تشن حربا نفسية على بعضها قبل المعركة، وتشن حربا نفسية على بعضها مصاحبة للمعركة، وتشن حربا نفسية على بعضها بعد المعركة، والفارق بين الحرب النفسية التي تشنها القوى المادية على بعضها، والحرب التي وضعتها سورة الأنفال: يتجلى في أن الحرب النفسية اليوم تعتمد الإشاعة الكاذبة وتعتمد كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ولا تحكمها الأخلاق ، في حين الحرب النفسية في ضوء سورة الأنفال لم تستخدم الإشاعة الكاذبة ، وإنما استخدمت الحقائق المنطقية التي يتفق عليها الكل حتى الخصوم ، واستبدلت الإشاعة بأسلوب يسمى التورية،ولم تغفل الأخلاق، وإن كان الإسلام يجيز الكذب في الحرب فقد قال صلى الله عليه وسلم:(الحرب خدعة)(١) والحرب النفسية التي اعتمدتها السورة تستهدف كل شرائح الخصم، القادة والجنود، القريب والبعيد ، المموِل والمموَل ، من

(١) رواه البخاري، ٣/ ١١٠٢، رقم ٢٨٦٥، ومسلم، ٣/ ١٣٦٢ ،رقم ١٧٤٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

دخل المعركة ومن لم يدخلها وهي بهذا المنهج تشكل سياجا قويا على الأمة المسلمة تصتدم به كل النفوس التي ترغب في النيل من الإسلام وأهله.

والحمد لله رب العالمين

المصادر

١- الأنصاري، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبو محمد ت ٣٦٩هـ: طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها، تحقيق عبدالغفورعبدالحق حسين البلوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي-ت٢٣٥هـ: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ، الرياض، ط /١٤٠٩، ١هـ.

٣- الشيباني ، احمد بن حنبل: أبو عبد الله ت ٢٤١هـ: المسند، مؤسسة قرطبة، مصر.

٤- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي ت ٢٥٦هـ: الجامع الصحيح ،تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، اليمامة، بيروت ، ط/٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥- ==== :التاريخ الكبير،تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.

٦- النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري : الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٧- =====: الكنى والأسماء، تحقيق عبد الرحيم محمد أحمد القشقري ، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، ط/١ ،١٤٠٤هـ.

٨- الهيثمي ، علي بن أبي بكر ت ٨٠٧ هـ: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث،و دار الكتاب العربي، القاهرة و بيروت ، ١٤٠٧هـ .

٩- ابن خلكان،أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت ٦٠٨هـ ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ، ١٩٦٨م.

١٠- الشوكاني، محمد بن علي ت١٢٥٠هـ : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت،١٩٨٣م.

١١- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله –ت ٧٤٨ هـ: سيرأعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٩ ، ١٤١٣هـ.

١٢- القيسراني، محمد بن طاهر ت ٥٠٧هـ، تذكرة الحفاظ (أطراف أحاديث كتاب المجروحين لابن حبان)،تحقيق حمدي عبد المجيد إسماعيل السلفي، دار الصميعي، الرياض ،ط/١ ، ١٤١٥ هـ.

١٣- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء ت ٧٧٤هـ: تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة، بيروت، ط/٢ ، ١٩٨٩ م .

١٤- ====: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.

١٥- الصنعاني،أبو بكر عبد الرزاق بن همام ت ١٢٦هـ: المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/٢، ١٤٠٣ هـ.

١٦- محفوظ،محي الدين علي : مدخل إلى العقيدة والإستراتيجية، دار الاعتصام، القاهرة، ط/٢.

١٧- الزبيدي، كامل: علم النفس في الميزان العسكري، الدار العربية للموسوعات، ط/١، ١٩٨٨م.

١٨- نوفل،أحمد: الحرب النفسية، دار الفرقان،عمان، ط/٣ ،١٩٨٧م.

١٩- الجبوري، نهاد شهاب: العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، دار الحرية، بغداد، بدون طباعة ولا تاريخ.

٢٠- الطبري، الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر ت ٣١٠هـ: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دارالفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢١- ====: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية – بيروت- ط/ ١ عام ١٤٠٧هـ.

٢٢- القرطبي ، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله ت ٦٧١هـ : الجامع لأحكام القرآن،تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ، دار الشعب، القاهرة، ط/٢، ١٣٧٢ هـ.

٢٣- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ: صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط/٢ ، ١٣٩٢هـ .

٢٤- ابن القيم، للإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبد الله ت ٧٥١هـ : زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط و عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة و مكتبة المنار الإسلامية ، بيروت و الكويت ، ط/٤ ،١٤٠٧.

٢٥- ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي المصري ت ٧١١هـ: لسان العرب، دار صادر، بيروت ،ط/١.

٢٦- الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري - ت ٤٠٥هـ :المستدرك على الصحيحين،تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دارالكتب العلمية، بيروت، ط/١،هـ١٤١١- ١٩٩٠م.

٢٧- خلاف،عبد الوهاب: علم أصول الفقه - ، دار القلم، الكويت، ط/٢٠ ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢٨- ابن هشام، عبد الملك الحميري المعا فري أبو محمد ت ٢١٣هـ :السيرة النبوية،تحقيق طه عبدالرؤف سعيد، دار الجيل، بيروت، ط/١، ١٤١١هـ.

٢٩- قطب، سيد ت ١٩٦٦م: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت ،ط/١١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٣٠- شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/١ ، ١٩٨٥م.

٣١- الزمخشري ، أبي القاسم جار الله محمود عمر الخوارزمي ت ٥٣٨هـ : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت،- بدون طبعة ولا تاريخ.

٣٢- المبارك فوري، صفي الرحمن: الرحيق المختوم، دار القلم، بيروت،ط/١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٣٣- مجموعة من الباحثين: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق العربي، بيروت،ط/٢٨ ، ١٩٨٦م.